

الفصل الأول

الإنسان والتاريخ

رحلة طويلة شاقّة في مسالك وعرة وحروب متعددة ... رحلة بدأت مع بداية الإنسان على الأرض وما زالت تكتب فصولها وحوادثها .

إنها قصة الإنسان على هذه الأرض في محاولاته المتعددة المستمرة لأن يبيء نفسه حياة أسعد وأكثر أمناً . وتشبعت محاولاته بألوان من الكفاح تعددت أسلحته ، ولكننا في هذا الكتاب سنستبعد كل هذه الأسلحة إلا سلاحاً واحداً .

بسلاح التربية يحاول الإنسان منذ أقدم العصور أن يمكن نفسه على الأرض ، وأن يمضي سني حياته في أمن وسعادة . ولكن نظرة فرد ما قد تختلف عن نظرة فرد آخر في معنى السعادة والأمن وفي وسائل تحقيقهما . من الإنسان من يلجأ إلى الفكر الرشيد والحكمة والتعمّل ليحقق ما تصبو إليه نفسه ، مستغلاً إمكاناته وقدراته ، فاذا عجز عن تحقيق كل ما يطمح إليه اقتنع بما حصل عليه .

ومن الناس من يحقق أطماعه وآماله بحد السيف والقوة ، ومنهم من يلجأ إلى الخديعة أو إلى النفاق والرياء ليحقق حاجة في نفسه . ومن الناس الضعيف المستذل ومنهم الشديد المزجر ، ومنهم الوديع اللطيف ومنهم الشرس العنيف . وكل هؤلاء وأولئك بشر ، تلعب الصفات الإنسانية أدواراً متباينة عند كل .

وقد عرفنا كل هذه الأنواع مما قرأناه في سير الأقدمين وقصص المحدثين وعرفناهم من لقاءاتنا معهم كل يوم ، في العمل ، في الطريق ، في المقهى .. في قاعة الدرس ، وحتى بين جدران البيت :

(م ١ - تطور الفكر) .

ولعلنا نسأل : هل أنت محصلة لعوامل وراثية جسمية فحسب ؟ أم أن هناك عوامل معنوية يرثها الطفل المولود من أجداده عبر القرون ؟

إن الصيني والإنجليزي والسويدي والمصري والكيني ... كلهم من عائلة واحدة ، هي أسرة الإنسان . وقد يختلف لون البشرة وشكل العين ولون الشعر . كما تختلف العادات والقيم . وإذا كانت الدراسات على الصفات الجسمية قد قطعت شوطاً طويلاً ، فإن المباحث عن الصفات الثقافية تحاول ألا تظل متخلفة .. في عالم ما كان في يوم من الأيام أشد قرباً منه الآن .

لهذا فأرجو أن أقدم بعض المعلومات عن الحضارة وعن الثقافة ، حيث أن هذا الكتاب يتناول قصة الفكر التربوي ، الفكر الذي تمخض عن محاولات بشرية في مجتمعات صغيرة وكبيرة ، قديمة وحديثة . مجتمعات ليست متشابهة ، وإن كانت هناك صفات عامة مشتركة بينها .

الحضارة والثقافة

أنتج تطور البشرية عبر القرون حضارات وثقافات عديدة . ولعل الحكم على هذه الحضارات والثقافات يتحدد بمعايير نسبيين . والمقصود بكلمة نسبي هنا أن هذين المعيارين انبثقا من التفضيلات القيمة البشرية . واحد من المعيارين هو اتساع وعمق المحتوى الكثيف لهذه الثقافات الذي استمر مئات السنين فاعلا وموثراً . ويضم هذا المحتوى الفنون والفلسفات والعقائد والعلوم والأخلاق والعادات وغيرها من مكونات الثقافة .

أما المعيار الآخر فهو مدى وعمق الإسهام الذي تقدمه مكونات الثقافة في حياة الأفراد الذين ينمون في ظلها .

ويمكن أن ننظر إلى التربية - بمعناها الواسع - لا على أنها مجرد ذلك (الفن) الذي يوقظ ويزرع وينمي هذه المكونات عند كل فرد في المجتمع الذي لظله ثقافة ما حسب إمكانيات الفرد وقدراته ، ولكن ننظر إليها - أيضاً - على أنها المهارات التي تعمل على نقل وحفظ ثم زرع هذه المكونات في خيرات من يروثونها .

وقد يكون هاماً في عملية النقل تلك العناصر التي أثرت بفعالية واضحة في تأكيد الحياة البشرية ، وفيما حل بها من تغييرات عميقة . أى هذه العناصر التي أثرت في استمرار حياة الإنسان على ما كانت عليه . والتي أثرت أيضاً فيما أصاب هذه الحياة من تشكل وتغير . ومعنى هذا - أيضاً - أن تاريخ البشرية هو استمرار داخلي يحدث فيه أن فرداً أو جماعة أو مجتمعاً يستخدم ثم ينقل جانباً أو جزءاً من محتوى الثقافة إلى جيل لاحق .

هذا ما نعنيه عندما نقول إن الحاضر في نظرتنا إلى المستقبل يمسك بالماضي . فالحاضر متأثر بالماضي وموثر في المستقبل .

ولكى نفهم الحاضر ونقيمه لا بد من معرفة الماضي .

وللتربية اليوم أصولها الماضية وتطلعاتها المستقبلية ، وتؤسس الأنظمة التربوية والنظريات التي تحددها وتوجهها على الحضارات والثقافات .

وعلى أن نفرق بين الحضارة وبين الثقافة في علاقتهما بالتربية . فالحضارة تحدد مدى واتساع النظام التعليمي . أما الثقافة فهي تمد هذا النظام بمحتواته الأساسية . فثلاً تحدد الحضارة من يجب أن يتعلم ؟ ولأى مدة ؟ ومن يقوم على تعليمهم ؟ ولأى الأهداف ؟ وهذه كلها تحددها القوانين المدنية والنظام الاجتماعي .

وتحدد الحضارة أيضاً كون هذا التعليم إجبارياً أو إختيارياً ، عاماً أو خاصاً ، وكونه في المرحلة الأولى مشتركاً ، أو تكون هناك مدارس للبنين ، وأخرى خاصة للبنات ، ثم طول اليوم المدرسي والعام الدراسي .. الخ ، وكل هذه تحددها قوانين . وهذه القوانين تحدد علاقة الفرد بالمجتمع .

أما الثقافة فإن دورها مرتبط بتحديد المعارف والمهارات والفضول والقيم ، والاتساع والعمق في المحتوى الذي يأخذه الإنسان الفرد لتوجيهه الروحي والعقلي .

تمدنا الحضارة إذن بالوسائل الخارجية والمادية للتربية ، أما الثقافة فتحدد العناصر الداخلية للتربية . تمدنا الحضارة بالشكل ، والثقافة تمدنا بالمحتوى .

وعلى هذا فعندما نتكلم عن شخص مثقف ، أو شعب مثقف ، فاننا نشير إلى المحصلة النهائية لتأثير ثقافة ما على حياة فرد أو حياة شعب بأكمله . وليس معنى هذا أن فرداً ما لا يصبح مثقفاً إلا إذا هضم كل مكونات الثقافة التي يحيا فيها . فالواقع يقول العكس ، إذا أن تربية الفرد تحددها ما تخبره غيره أو ما تخبر هو جزءاً منها (من جوانب الثقافة العلمية والفنية والدينية والحلقية والفلسفية والاقتصادية والتكنولوجية) .

التأكيد هنا حول ما تخبره الغير وما تخبره الفرد . فقد علت صيحات بعض المرين وفلاسفة التربية مطالبين بالمزيد من حق الفرد في تخير ما يدرسه . ولكن تصميم فلاسفة آخرين يصر على حرمان الفرد هذا الحق . ورأيهم أن للفرد واحد في جماعة تهيمن عليها اعتبارات تتلاشى أمامها اهتمامات فرد ما . وسجل تاريخ الفكر التربوي زاخر بمواقف غزيرة في هذه الحرب المستمرة . وإذا حق لي أن أدعو القارئ إلى وقفة بسيرة ليفكر في هذه المسألة فاني أرجوه ألا يطيل الوقوف ، ففي صفحات الكتاب القادمة من المادة ما قد يعطيه وقوداً للتفكير ، وزاداً للتأمل ، ومادة يرتكر عليها .. بل إن هذا ما يأمل فيه كاتب هذا الكتاب .

وقد تشفى الغلة عجالة خاطفة قوامها أمثلة مأخوذة من سجل التاريخ : اهتمت اسبرطة مثلاً - وهي مدينة إغريقية كان لها شأن عظيم في الماضي البعيد - بتأكيد فضائل ضبط النفس والطاعة والتضحية والتحمل والشجاعة .. وكل هذا مغلف في رداء عسكري صارم أرادته ساستها وفرضوه على مواطني اسبرطة . في حين أننا نجد في مجتمع آخر تنحسر النزعة العسكرية وتخلي المحال للعناصر الحلقية والدينية والفنية كما كان الحال في بلاد الفرس القديمة . وفي غيرها من بعض المجتمعات الآسيوية نجد أن الصين القديمة سلطت الأصواء على المحتوى الإنساني في الثقافة ، كما أن الهند (البرهمانية) مجدت القيم الدينية والفلسفية . وفي مصر الفرعونية صار الاهتمام إلى القيم الدينية والمهنية ، كما كان الاهتمام في أوروبا في العصور الوسطى موجهاً إلى القيم الاقتصادية والدينية

ثم أعلنت النازية في ألمانيا من شأن القيم العسكرية والسياسية .. وفي الولايات المتحدة الأمريكية اليوم تمجيد القيم المادية والعملية .

الثقافة

يلعب مفهوم الثقافة اليوم دوراً حيوياً كركيزة للعلوم الاجتماعية . فعلى هذا المفهوم تبنى معلوت هامة عن الصفات العامة التي يشترك فيها الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها . وقد بدأت الأبحاث عن الثقافات منذ حوالي مائة عام . بدأت في حماس مؤيد باتجاهات علمية ، ومتوغل في الغابات والصحارى والأزقة والشوارع . حماس لم توقعه حدود طبيعية أو سياسية .

ولقد التقط رواد الفضاء من سفنهم آلاف الصور للأرض ، وقد تجمع صورة واحدة خمس أو ست دول ، فقد نظر الإنسان أخاه الإنسان من عل ، ولعل ركاب هذه السفن تساءلوا حينئذ : فم هذه الحروب وهذه الاشتباكات وقد التقطتكم عدسة في صورة واحدة ؟ التقطت الكوخ والقصر والنهر والصحراء والغابة .

ونرى مدناً شاهقة بناها أفراد من أسرة البشرية . ثم نرى قرية صغيرة بيوتها من طين وشوارعها متربة ... وجاموسة عند فلاح أغل من ابنه . وأقدام تدب حافية على أرض وعرة ، وسيارة لا يحس من فيها بحرارة الجو وهي تسابق الريح تنقله في رفاهية إلى حيث يشاء .

ونرى أفراداً من أسرة البشرية ارتبطت حياتهم بالكهرباء ، ومواقد لظهور الطعام ، تدفئة ، وسائل تسلية ... الخ ، وترى أفراداً لا يعرفون عن الكهرباء شيئاً ، وهؤلاء وأولئك يعيشون وتعمل أجهزتهم الجسمية ، ثم يموتون .. ولدوا ثم انتهوا . وكان لا بد من ذكر وأنثى وأشهر ينضج فيها الجنين في أحشاء الأنثى بطريقة لم يختلف فيها البشر ثم يجيء المخاض . ونفس الصحية من الوليد . أى وليد .. ثم تبدأ الاختلافات والتأثيرات البيئية ، من تقدم وتخلف ، وغنى وفقير ، حير وخيد وممش ، ثم تأتي اللحظة المرهبة عندما تغادر الروح

الجسد . ويتحول الكائن الحي إلى جماد ؛ ومرة أخرى تعود المساواة الكاملة
فصير الأجسام التي غادرتها الأرواح واحد ...

ويهمنا هنا ما يحدث بين الميلاد والوفاة ، وقد نستطيع أن نقرر لأول وهلة
أن الإنسان يتشكل بالثقافة ؛ وفي رأى أن هذا التشكيل يتحدى مستوى
الشعور والوعى .

ومن المعروف أن أفكار الفرد ولغته وعضلاته التي تستخدم الأدوات
والآلات وذوقه وقيمه قد نمت في إطار من الأنماط الخاصة . وفي النمو معنى
التدريب الذى يبدأ من طفولة الفرد متقدماً معه إلى غلومته ومرافقته ورشده .
والفرد ينمو في ثقافة ، ولولا وجود هذه الثقافة التي تحفظ مكاسب الماضي
وتصهر في بوتقتها الأجيال الجديدة والمتعاقبة لما اختلف « الإنسان العاقل » عن
القرود إلا في انتصاب القامة والتفوق في الذكاء ... كما يقول لنتون Linton .

وفي الحديث عن أثر الثقافة يتكلم علماء الاجتماع والأجناس ، منهم من
ابتكر تعبير « كعكة العبادة » وتعبير « الفولكلور » وتعبير « طريق الجماعات »
وتعنى ما بين الجماعات من اختلافات في العادات والقيم . وقد يكون من
المعلومات التي تسرك وتصدمك أن تعرف أن قبيلة ما تحرم لبس شيء أعلى
من وسط الجسم ويجب أن يظل القسم العلوى من الجسم عارياً تماماً ... ونفس
القبيلة اعتادت أن تقيم احتفالاً لتقتل فيه المرضى من المسنين .

إذا عجبت لهذه المعلومات فثق أن أفراد هذه القبيلة لن يقبلوا موقفنا نحن
من الملابس والعناية بالمرضى المسنين . بل إن بعض عاداتنا وتقاليدنا التي
تضفي علينا دفئاً وأمناً سيضحك منها شعب أوربي ، بل إننا نستنكر أن تمنح
ملكة بريطانيا الأوسمة الكبرى لجماعة « الخنافس » وتستنكر تقاليدنا الصداقات
بين الشبان والشابات مما هو أمر عادى ومقبول في مجتمع غربي .

الاختلافات كثيرة إذن ، ولكن كل جماعة تستشعر الأمن في إطار
قيمتها وتقاليدها ... ولتنعم كل جماعة بما عندها ، ولكن على عقولنا الراشدة
أن ترك هذه الاختلافات لتسير أغوار الصفات المتشابهات . فهناك الحاجات

العامة التي تحرك السلوك البشري .. في أى مكان كان البشر ، وهذه يطلق عليها « العموميات » لأنها تهيمن على « الإنسان العاقل » في أعماق الأدغال ، أو في قاعة مكيفة الهواء بفندق حديث .

وعندما نتتبع قصة التربية ونتحدث عن التطور الفكري التربوي فقمين بنا أن نضع هذه العموميات نبراساً يهتدي الطريق لنا ، ولعل من الخير أن يحاول دارس الفكر التربوي أن يكون واسع الصدر في تقبله لعادات غيره ، مهما اختلفت وتنوعت ، وألا يحاول أن يخضعها لأحكامه القيمية ، بمعنى ألا يصفها بالسوء أو الحسن طبقاً لما اعتاده هو . إن بعض الجماعات تنظر إلى المصابين بالصرع على أنهم مفوضون من قبل قوى عليا ، ولذلك فهم محل كل احترام وتقدير ، بل أن بعض نزلاء المصححات والمستشفيات العقلية قد ينالون كل تبجيل في قبائل تنظر إلى تصرفاتهم على أنها إشارات من قوى خارقة .

خير إذن في أن تدرس تصرف جماعة في إطارها هي ، فيما تعنيه بوما ترمى إليه ، فاذا سمعت عن رجل يتطيب ويتعطر ويكحل في وقت النبي عليه للسلام ، فلا تحكم عليه بمعاييرك الحالية ، ففي ذلك الوقت كان هذا أمراً مقبولاً متعارفاً عليه .

وقد جاب علماء الإجناس والاجتماع أرضاً واسعة وعبروا البحار والمحيطات . وجمعوا معلومات غزيرة مكنهم من استخراج العموميات بعد غربلة ما تجمع لديهم . والعموميات بهذا المعنى هي العوامل المشتركة التي تعطينا المعلومات الحيوية عن البشرية . وكم تناسى رجال السياسة هذه العوامل بل وتجاهلوا وجعلوا جماعة تستعبد أخرى . وجماعة تتختم بالطعام وأخرى تموت جوعاً .

ولعل من أوائل هذه العموميات نزعة الناس إلى تكوين جماعات وقبائل ومجتمعات ، ثم يكونون لأنفسهم عادات وطرائق للحياة ومعتقدات حتى يقيموا صرح بنائهم الاجتماعي .

ويعرف المجتمع بأنه جماعة من الأفراد تعلموا أن يعملوا سوياً . والمجتمع بهذا المعنى ليس مجرد تجمع أفراد ، ولكن لا بد من وجود مجموعة من ألوان الولاء والمواطف التي تدفع فرداً إلى التضحية في سبيل الصالح العام . على أن هذه الصور من الولاء والمواطف وغيرها من العناصر التي يشترك فيها أفراد المجتمع هي في الواقع جزء من الثقافة . وهذا يعني أن ثقافة مجتمع تختلف عن ثقافة مجتمع آخر .

وتعرف الثقافة (١) بأنها نسيج الأفكار والمثل العليا والمعتقدات والمهارات والأدوات والتجاذب الفني وطرق التفكير والعادات والمؤسسات التي يعيش فيها الفرد . بهذا المعنى فإن ثقافة مجتمع تشمل على الطرق التي يتكسب بها الأفراد ، الرياضة التي يمارسونها ، القصص التي يحكونها ، الأبطال الذين ينالون تقديرهم ، الموسيقى التي يعزفونها وتشجيعهم ، الطرق التي يربون بها أطفالهم ، تنظيماتهم الأسرية ، طرق مواصلاتهم واتصالاتهم ... وغيرها وغيرها ، وكلها مما صنعه الناس في بيئاتهم .

وإذا كانت الثقافة تختلف من مجتمع لآخر ، فإنها تختلف أيضاً في المجتمع الواحد ، تختلف من عصر إلى عصر ، وما سلوك الفرد إلا انعكاس للثقافة التي يعيش فيها . فلو نقلت طفلاً مصرياً وعاش طفولته إلى رشده في اليابان لتصرف وتكلم يابانياً بوجه مصري وملامح جسمية مصرية . ولو - بوسيلة ما - بعث أحد أجدادك من موته منذ ثلاثة أو أربعة قرون ، وأصبح حياً اليوم لوجد أنه في ثقافة غريبة تماماً عنه مع أنه بوجهه وملامحه مصري صميم .

ويقول وليام جيمس James إن الفرد في المجتمع يندفع لأداء واجبه وهو مؤمن بأن غيره من أفراد المجتمع مندفعون هم أيضاً لأداء واجبهم . فنظام الحكومات والمؤسسات التجارية وهيئة التدريس في المعاهد العلمية

Smito, Stanley, and Shores : Fundamentals of Curricularum (١)
Development, p. 5.

والفرق الرياضية وغيرها ، كلها تعمل على أساس أن لكل فرد عملاً وواجباً يتحتم عليه عمله ، وإلا لما استكمل العمل .

العمل المشترك سمة أساسية في المجتمع ، أى مجتمع ، المجتمع الصيبي منذ ثلاثة آلاف سنة والمجتمع الرومى اليوم ، المجتمع فى غابة استوائية ، والمجتمع الذى يجلس أفراده حول أجهزة التلفزيون . وبدون هذا التماضد يتفكك المجتمع وتسقط الحجارة ، لأن ما يعمل على تماسكها قد تلاشى .

وقد اختلفت النظرة للفرد وعمله اليوم عما كانت عليه منذ مئات السنين ، وقد أصبح المجتمع - لا الفرد - هو الوحدة الأولى فى الصراع من أجل الوجود . وقد حدث هذا عندما انتقل التأكيد فى مفهوم الثقافة من الفرد وتمركز حول الجماعة ، ومضى الوقت الذى ركز فيه فلاسفة الغرب وعلماء الدين والمربون ورجال الأعمال ، ركزوا اهتمامهم على الفرد ملقنين عليه مسئولية خطاياهم وآلامه وانتصاراته وهزائمهم .

وجد علماء الأجناس والاجتماع اليوم أن الفرد ليس هو المسئول عن هذه المسئوليات وأنه لا يمكن فهمه فى مثل هذا الإطار لأنه محصلة للثقافة التى يعيش فيها ، هو جزء نام فى جماعته ، وكجزء من هذه الجماعة يجب أن نفهم هذا الفرد ، أن نفهمه فى إطاره الاجتماعى (١) . ويقول لينتون إن فهم الدور المزدوج للفرد ، كفرد وكوحدة فى مجتمع ، سوف يعطينا مفتاح الحل لمشاكل السلوك البشرى .

وقد استطاع علماء الاجتماع أن يأخذوا بيد دراسة الإنسان بعيداً عن طريق مغلق عندما بدأوا يتحسسون العلاقات بين الفرد وثقافته . وبهذا الاتجاه أمكنهم ، إلى حد ، أن يتلمسوا المواضيع الحقيقية للمشكلات ، وأن يسألوا الأسئلة الصحيحة ، وأن يلقوا أضواء حول الإنسان كحيوان اجتماعى منذ أن ترك تسلق الأشجار ... والإنسان هو هو سواء فى الغابة أو على شاطئ بحر أو فى واحة تحوطها الرمال ، أو فى مدينة تعلو مبانيها مناطق السحاب .

على هذا الأساس العريض تبدأ دراسة الإنسان وتفكيره التربوي في إطار من ثقافته . وفي دراسة تفكيره التربوي سوف نتذكر دائماً أن وراء كل فرد جماعة وأن تعاون هذه الجماعة مؤثر على تقدمها ورفقها ، وأن الفرد بمفرده عاجز . حقاً إن الصغار من الحيوانات أسرع ما تنفصل عن الأم وتستقل وتسعى ، أما الطفل البشري دون جماعة خلفه فاما إنه سيموت جوعاً ، أو إذا منحته الطبيعة غذاء فسوف ينمو على صورة من البلاهة ليس بينه وبين الإنسان النامي في مجتمع إلا الصفات الجسمية . ويستطيع الإنسان المتحضر أن يعمل الكثير مما لا يستطيعه الممجى المتوحش ، لأن الأول قد واثته فرصة تعلم (أشياء) أكثر ، ولأن ثقافته أدم وأغزر . ولا يمنع هذا من القول إن الطبيعة الفطرية للإنسان الممجى وقدراته التي ولد مزوداً بها عظيمة .

الثقافة والتاريخ

يعطينا هذا المفهوم عن الثقافة نظرة جديدة في التاريخ وفي أنفسنا .. فالثقافة نتاج عملية تغيير تدريجي ، ومع ارتفاع الستار عن مسرحية المدينة وهبوطها فان هذا لا يجب أن يقنعنا بأن من الثقافات ما قد سقط وتلاشى . فثقافة المصريين القدماء لم تندثر ولم تطمس من الوجود وإنما طرأت عليها تغييرات ، وكذلك الحال مع ثقافات في أقصى الشرق وفي الغرب وعبر المحيطات .

ويولد الأفراد وموتون ، ويتحول نمط الثقافة تحت ضغط الأحوال الجوية والاختراعات الحديثة والاحتياجات الداخلية ، وقد تتحرك الجماعات نازكة مكانها مهاجرة عبر الجبال أو عابرة المضائق . وتغير الجماعة طبيعة الأرض التي تعيش عليها ، وقد يكون الجو أكثر برودة أو أدفاً ، ومع ذلك فالأطفال الصغار يتلون الحماية والرعاية والحب ، ويتعلمون من الكبار أو يعلمهم الكبار عن عمد . ثم إذا دعا داع التفت الجماعة وتكاتفت لتدفع عنها عدواً يهددها . حدث هذا منذ آلاف من السنين : ويحدث اليوم . وعلى الجماعة أن تبقى لتصارع الموت والزمن .

ولعل مفهومنا عن الثقافة هو الذى يعطينا الحقيقة عن البشر . هذه الحقيقة التى غفلها التاريخ منذ أيام هيرودوت إلى يومنا هذا ، فلم يركز التاريخ أشعته على الحقيقة وإنما ركزها على الأفسراد .. على الملوك والأباطرة والقواد العسكريين ورجال الأديان وغيرهم ... على العظماء من الرجال الذين يرتفعون فوق مستوى الجماعة بعبقريتهم وقدراتهم أو لأسباب أخرى ... وكثير من هؤلاء الرجال أعملوا السياط فى أفراد الجماعة عندما دانت لهم القوة . ولم يصنع القائد الوقت وإنما ما حدث هو العكس تماماً .

التاريخ إذن بقياصرته وأباطرته أصبح سجلاً لغير العاديين والعباقرة وثبتاً للبعض ممن اختلفت وظائف بعض غددهم فأثرت على اتجاهاتهم ومسالكهم . وهذا يضع التاريخ الهرم الاجتماعى مقلوباً ، قمته إلى أسفل . ولعل مفهومنا عن الثقافة يعيد للهرم وضعه الصحيح ، وإذا كان للملوك والحكام وحمة السيوف اللمع من رجال الحرب مواقفهم الحاسمة الحازمة ، فان قصة التاريخ الحقيقية تعنى المجتمع الذى حوى أطفاله ونظم موارده الغذائية عبر العصور .

ويهم مفهوم الثقافة بالإصلاح الاجتماعى والاقتصادى . فلا خير فى مجتمع يتقدم صناعياً بصورة مذهلة وتبقى نظمه الاجتماعية فى عطن القديم وتخلفه . لا خير فى مجتمع ترتفع مداخن مصانعه وينتشر فى سمانه دخان أسود يشهد أن عضلات تلمع أمام الأفران الكبيرة وصلباً ينصهر بكيات هائلة ، ومع ذلك فما زالت الأفكار والمبادئ والمفاهيم والمعانى تغط فى تخلف عميق . على هذه الفجوة أن تزول ، فليس البشر مجرد آلات صماء ولكنهم عقول تفكر ، تفكر مسترشدة بقيادة رشيدة تعمل للصالح العام .

وإذا كانت ثقافة أى مجتمع تشمل قياً تشتمل عليه إنتاجه الفنى والملاذى فهى أيضاً تهتم بما يفكر فيه ناس هذا المجتمع ، وما يأملون فيه وما مرت بهم من آلام . ولم يهتم التاريخ اهتماماً يذكر بالشعب والقوى العاملة . وجاء مفهوم الثقافة نملاً هذه الفجوة . ولهذا فقد اندفع رجال الإعلام بوسائلهم الجبارة المؤيدة بالأجهزة والأدوات محاولين أن يكشطوا الطبقة العليا التى تغطى أفكار

الناس ، وظنوا أن محوها سهل ، وأنه بمجرد زوالها يصبح لم السلطان على الأفكار فينقشوا عليها ما شاءوا وكيفما شاءوا . وأعتقد أن هذا مستحيل . فكل كائن بشري يولد في عالم قد حدد قبل أن يولد ، وقد حددته أنماط ثقافية موجودة فعلا .

ليس من السهل إذن أن تنقل جماعة من نمط ثقافي إلى آخر مهما استخلمت من وسائل إعلامية ، كما أنه ليس من المعقول أن يستطيع إنسان الطيران بهز ذراعية بشدة وقوة واستمرار . يريد الإنسان أن يفتتح ، على هدى من التجارب والمحاولات . ويريد الإنسان أن يؤمن داخلياً حتى يبدأ عملية التغيير .. وبناء العقول أصعب من بناء المصانع .

ولم يتم التاريخ بما كان يحس به الناس ، وبما كانوا يفكرون فيه ومثلهم العليا .. فقد كان معظم الخلق على أديان ملوكهم ، وكان عمل الجماعات الأساسية استمرار بقائهم ووجودهم فبحثوا عن الغذاء والكساء والمأوى وحماية الصغار . والسؤال أين نجد سجلاً لأفكار الناس ومثلهم بعيداً عن الضغوط العسكرية والسياسية ؟

يلوح لي أن سجل الفكر التربوي قادر - إلى حد - على إنقاذ بعض الأضواء على هذه الأفكار ، فالفكر التربوي في زمن ما ومكان ما قد عبر عن نفسه في تعاليم وكتابات ولدتها عقول اتسمت بالرزانة والحكمة في إطار من المتأمل النظيف ابتغاء وجه الحق والعدل والجمال . عقول متحررة من ضغوط سياسية وعسكرية آثرت خير الجماعة ممثلة في خير أفرادها .

ولكن المجتمع في تطوره والبشرية في نموها حتمت اتجاهات أخرى ، وهنا بدأ الصراع : فقد بدأ من الممكن أن تحيط مدينة أو دولة نفسها بسور عظيم وتكفي نفسها . ولكن الناس يتزايدون والمخترعات والاكتشافات تتقدم والعجلة التي كانت تحمل عربية يجرها إنسان أو حيوان أصبحت اليوم تحمل طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت . وكان على الأسوار العظمى أن تتحطم ، وما عادت المحيطات تفصل الشعوب وتحميها ، ولم يعد في وسع الفكر التربوي

إلا أن يوسع أفق تفكيره عبر الحدود إلى أطراف الدنيا ليضع في اعتباره الرواناً من التعاون الثقافي والاقتصادي والعسكري والعلمي ، وألواناً من التمهيدات نَحْم عليه في إلحاح أن يتنبه لها . وإذا كان الفكر التربوي قد تأثر منذ فجر حياة الإنسان على الأرض بالعوامل الاقتصادية والدينية في المحيط الضيق الذي يجمع جماعة من الناس ، فهو اليوم أشدَّ احتياجاً إلى التأثر بالعوامل الاجتماعية والسياسية بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية التي تلعب دوراً هاماً في الصدارة .

ويهتم الفكر التربوي بما يطلق عليه اسم « سنوات التكوين » وهي تلك الفترة التي تتشكل فيها (شخصية الفرد) . وفي رأى البعض أنه لو عهد بالأطفال في السنوات الست الأولى من أعمارهم للمؤسسات الدينية التي تشبعهم قيماً روحية لضمن المجتمع أفراداً صالحين قادرين على التعاون والتقدم في ظل هذه القيم الروحية التي تؤكد إنسانية البشر . ولا يكاد يختلف العلماء المهتمون بالتربية في أهمية السنوات الست الأولى من حياة الفرد حيث يكون أكثر قابلية واستعداداً لما يوجه نحوه (١) .

ويقول علماء الأجناس إن لأطفال أى شعب أو جنس نفس الأجهزة الجسمية ، ولكن منذ أن يولد الطفل يتعرض لخبرات تساعد على تشكيله في الثقافة التي يجد نفسه فيها . فطفل الثالثة أو الرابعة قد تعلم مئات العادات وآلاف الكلمات وأساسيات اللغة التي تتكلمها ثقافته . كما أنه يتلقى آلاف الانطباعات التي لن يتذكرها شعورياً في نضجه ورشده ، ولكنها سوف تطبعه بطابع معين ، كأن يكون يابانياً أو هندياً أو مصرياً أو فرنسياً ...

أما علماء الاجتماع فهم يؤكدون الجوانب التربوية التي تترك بصماتها عند الفرد ، كما يؤكدون أهمية المؤسسات التربوية المخلفة التي تؤثر على تشكيل الفرد وتكوين شخصيته .

(١) بل إن بعض العلماء يرون أن القدر الأكبر من القدرات العقلية (يشكون) في السنوات الأولى من حياة الفرد ويؤكدون الأضواء هنا على أهمية المؤثرات البيئية .

وهناك أيضاً فئة علماء النفس الذين يعملون في ميدان التربية وهؤلاء يحرصون على إبراز أهمية النشأة في بواكير الطفولة . وهم يدرسون استجابات الأطفال ونموهم مستخدمين في ذلك أجهزة معملية وآلات تسجيل أصوات وإحصاءات ورسوم بيانية ومعاملات ارتباط ومقاييس متنوعة ، وعقول إلكترونية و .. الخ كما يتجه بعض علماء النفس التربوي إلى محاولة تحليل تفصيلات العمليات الحيوية التي يصبح الفرد بها حاملاً للثقافة . ويأجأ علماء النفس إلى مساعدة علماء الأجناس للكشف عن الشخصية التي تخرج من ثقافة ما .

وهناك إلى جانب هؤلاء وأولئك جماعة الطب النفسى الذين يؤكّدون أهمية المؤثرات الانفعالية على الأطفال ، ويقولون إن الخبرات المبكرة التي يتعرض لها الأطفال قد تشكل خلق الفرد بصورة لا يمكن نقضها . ويرتبط عمل الطب النفسى بعمل علماء الأجناس وعلماء النفس ، ولكن له صفة طبية جسمية ، ويلوح أن العادات الانفعالية ترتبط في مراحل تكوينها بالعادات الجسمية . ومع ذلك فالظاهر أن علماء الطب النفسى قد توصلوا إلى حقائق ونتائج عن تفسير الدوافع والأسباب التي تؤثر في سلوك الفرد أكثر مما توصل إليه غيرهم من العلماء المعنيين .

ويتفق العلماء في تخصصاتهم الأربعة السابقة ، على أهمية توفر الأمن والعطف بالنسبة للطفل في سنه المبكرة ، ويقولون إن فقدان الأمن والعطف في الطفولة سوف يؤدي إلى نتائج وخيمة نرى أمثلة منها في المصححات العقلية أو التصرفات الانحرافية لأفراد يعيشون بيننا .

لم يعد المفكر التربوي اليوم قادراً على الإسهام والعمل السليم بدون الرجوع إلى غيره من العلماء المعنيين بالأمور الاجتهادية والنفسية والطبية . ولعل المفهوم الجديد للثقافة وما تشتمل عليه يتيح لنا الفرصة لأن نبرز في تفكيرنا في الأمور التربوية عوامل قد يكون أجدادنا قد أغفلوا جوانب منها . وجدير بنا ألا ننظر إلى الفرد بعيداً عن مجتمعه ، وألا نتجاهل الفرد تماماً مركزين على

المجتمع . هل في الإمكان أن ندرس للفرد في مجتمعه ، وأن نلون تفكيرنا
للربوى بهذا الاتجاه ؟

إن الطبيعة البشرية ليست هي ما ولد به الإنسان ولكن ما يصبره بتأثير
العوامل المنظمة في بيئته الاجتماعية(١) فيتأثر الفرد بالعوامل والمؤثرات التي
يتعرض لها في هذه البيئة ، إلى جانب الغذاء ، الحب ، أن يحب غيره
وأن يكون هو نفسه محل حب من الآخرين . وقد ساد اعتقاد خاطيء لمدة
طويلة أن الإنسان يولد أنانياً وعدوانياً ، وأن عليه أن ينال من (الريبة)
ما يضع حداً لأنانيته وعدوانه . وقد أثرت هذه الفكرة على اتجاهات الكبار
نحو الصغار ، كما أثرت على مجريات الأمور في المجتمع .

• • •